المحاضرة التاسعة

الإسلام

لقد كان انتشار الإسلام عاملا أساسيا وحاسما في تشكيل تاريخ العصور الوسطى الأوربية، واتضحت لنا خريطة تقسيم عالم البحر الأبيض المتوسط، إذ برزت ثلاث قوى تميزت كل منهما بحضارتها، الإمبراطورية البيزنطية، الخلافة الإسلامية، والكيانات السياسية التي تشكل منها الغرب اللاّتيني بعد الغزو وخاصة الجرماني.

وشكلت العلاقات بين هذه الأطراف في مختلف مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية والدينية أهم المواضيع في تلك الحقبة[1]. وباعتبار الإسلام ظاهرة دينية شرقية وحضارية، إلا أنه بالغ الأثر على أوربا في العصور الوسطى، وفي الحقيقة أن اتساع الدولة الإسلامية غربا لم يضم سوى بعض البلدان مثل الأندلس وصقلية وبعض الجزر المتوسطية، ولكن المسلمين وسعوا نفوذهم على حساب المناطق المطلة على البحر الأبيض المتوسط، التي تتوزع عبر قارات العالم القديم مثل بلاد الشام ومصر وشمال إفريقيا. وبهذا احتلت الدولة الإسلامية موقعا استراتيجيا من خلاله انتقل التراث الشرقي إلى الغرب اللاّتيني[2].

إذ أن هذا الأخير كان على تواصل مع الشرق، وخاصة الحضارة العربية الإسلامية، وشكلت التجارة رافدا مهما للاطلاع على حركية المجتمع الإسلامي في تلك الفترة، والاستفادة من العلوم والفنون[3]. إن فتوح المسلمين لبلاد الشام ومصر جعلهم يشرفون على سواحل ذات أهمية، يمكنهم من خلالها قطع عبابها للعبور إلى أمصار أخرى ينشرون فيها دين الحق، ولابد لهم من خوض معركة الانتصار، خاصة وأن هذا المجال تمكن البيزنطيون من بسط نفوذهم وسيطرتهم عليه.

كما أقاموا في سواحل مصر والشام أسطولا بحريا به تُكسر شوكة كل من خرج عن طاعتهم في مختلف الأقاليم المتوسطية. ولما تمكن المسلمون في مصر والشام أصبحوا يصنعون السفن في السواحل المصرية وترسل إلى سواحل الشام، لتشحن بالعتاد والمقاتلين لمقارعة البيزنطيين نتيجة قرب قواعدهم من الشام، ولما توسعت صناعة السفن في الشام دخل التعاون المصري الشامي دورا جديدا[4].

وقد كُللت أولى المحاولات البحرية للأسطول العربي الإسلامي ضد البيزنطيين في فتح جزيرة قبرص التي تتميز بموقعها الممتاز سنة 654م/33ه، فكان لهم أن يخوضوا غيرها ليتمكنوا من السيطرة على حوض المتوسط، لتأتي معركة ذات الصواري سنة655م/34ه التي قصمت ظهر الروم وأعطت الأولوية للمسلمين في البحر، وبهذا يمكنهم من مواجهة

البيزنطيين مرة أخرى في عقر دارهم، وحصار القسطنطينية ومحاولات فتحها، بدءا من سنة 669م/48ه، إلى غاية سنة715م/99ه.

ونتيجة لتركز القوة البحرية البيزنطية في الشرق للدفاع عن العاصمة، تمكن المسلمون من بناء قاعدتهم في شمال إفريقيا، التي أصبحت ركيزة للسيادة العربية الإسلامية في غرب حوض المتوسط[5]. وبتمكن المسلمين من بسط نفوذهم وسيطرتهم على أقاليم عديدة من العالم القديم، آسيا وأوربا وأفريقيا، اتبعوا سياسة التعايش والتسامح مع الآخر، فكان لذلك أثر على حركية الإنتاج العلمي والفكري، وأصبحت نقاط التماس بين المجتمعين الشرقي والغربي، مثل الأندلس وصقلية بعدما فتحهما المسلمون وبلاد الشام بعد حركة الحروب الصليبية[6]، منافذ وجسور عبور منها انتقلت العلوم والمعارف العربية الإسلامية باتجاه الغرب[7].

(1088-1099م) هو من أثار الحماس الديني في نفوس أبناء الغرب ووعدهم بالكسب هناك في حالة خروجهم وتحقيق النصر على المسلمين. وقد كانت الحملة الصليبية الأولى على بلاد الشام، أكثر نجاحا لأنها وطنت الصليبيين في المنطقة ما يقارب القرنين من الزمان. للمزيد عن الحركة الصليبية واتخاذها شعار الصليب. انظر: فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة: زياد جميل العسلي، دار الشروق للنشر والتوزيع، 1990، عمان، الأردن، ص.37؛ انظر أيضا: محمد العروسي المطوي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، 1982، دار الغرب الإسلامي.

[7]) للمزيد عن التبادل الحضاري وعبور الثقافة العربية الإسلامية إلى الغرب، انظر: حسن حلاق، العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، الأندلس، صقلية، بلاد الشام، ط.2، دار النهضة العربية، 2012، بيروت، لبنان.